الإمام الخمينيّ عارفاً مجاهداً

معرفتُه بالله تعالى وأوليائه سرُّ العصر الخمينيّ قدّس سرّه

الشّيخ حسين كوراني

*** تأمّلاتٌ في عرفان الإمام الخمينيّ قدّس سرّه وجهاده واللّغة الخمينيّة في الحديث عن رسول الله وأهل البيت صلّى الله تعالى عليه وعليهم.**

*** اختارت «شعائر» هذه المادّة لتَوضيح أمرَين:**

الأوّل: أنّ عرفان الإمام الخمينيّ هو السّبب في معرفته النّوعيّة المتميّزة بالحقيقة المحمّديّة.

الثّاني: أنّ عرفان الإمام هو السّرّ في جهاده وزهده وبساطة العيش، وهو أبرز معالم «خطّ الإمام».

ليس العرفانُ في حقيقتِه كما هي صورتُه في الأذهان، رغم أنّ تعديلاتٍ جوهريّةً دخلت على هذه الصّورة مع الإمام الخمينيّ، ولقد مرّت مرحلةٌ كان العرفان يُعتبَر فيها كفراً كما يصرح الإمامُ نفسه، ولعلَّ التّعديل الذي طرأ يستطيع أن يؤسّس لمرحلة جديدة يتبوّأ العرفان فيها موقعه الطّبيعيّ السّامي.

وفي حين دافع الإمام عن العرفان كثيراً، فقد هاجم بشدّة الادّعاءات الكثيرة التي لا علاقة لها بالعرفان الحقيقيّ، الذي يؤكّد الإمام على نُدرة وجوده بالرّغم من كثرة الادّعاء، ومن أوضح ما قاله الإمام في هذا المجال: «العرفان الحقّ، قلَّ وجودُه في الدّنيا». (للتوسّع: أنظر: صحيفه نور: ج ٢٠، ص ٤٩٤).

ويكشف التّدقيق في نصّ الإمام رضوان الله عليه أنّه يلتزم الدّفاع عن البُعد الرّوحي والمعنوي في الإسلام، وهو الذي تمّ التّعبير عنه بمصطلحات عديدة أسلمُها مصطلح «العرفان» الذي لم يخلُ بدوره من الشَّطحات، على غرار التّصوف الذي بلغَتْ شَطحاتُه حدّاً يستدعي الابتعادَ عن المصطلح والكثير من معانيه.

هذه النّتيجة المذكورة أعلاه تتجلّى بوضوحٍ من الجمع بين نصوص الإمام التي تمدحُ العرفان والنّصوص التي تذمُّه، والشّواهدُ في المجالَين كثيرة جدّاً، وقد تكون متعادلة.

• **في المجال الأوّل (مدح العرفان) أكتفي بالشّواهد التّالية:**

* في معرض حديثه عن مقاصد الأنبياء والمعاني الدّقيقة التي ينبغي التّنبُّه إليها، والتي هي المعاني العرفانيّة، يقول قدّس سرّه: «نحن الذين نتحدّث عن مقصد الأنبياء، فإنّ أيدينا أيضاً تَقصرُ عن الوصول إلى مقصدهم الحقيقيّ. إنّه أمر آخر فوق (ما نتصوّر عادةً). لم يكن مقصدهم الحكومة، كانت الحكومة لمقصدٍ آخر لا أنّها كانت المَقصد، ترجع جميعُ مقاصدِهم إلى معرفة الله، كلُّ ما يَقع في الدّنيا (يرتبط بمعرفة الله أو عدم معرفتِه) وكلّ ما كان الأنبياء يريدون تحقيقَه هو معرفةُ الله (نشر) حقيقةِ معرفةِ الله، إذا تحقّق ذلك يترتّب عليه كلُّ (خير) ويحصَل بعده.

منشأ جميع أنواع الفساد التي تقعُ في الدّنيا هو عدمُ الإيمان بالله، إذا تحقّق الإيمان بالله تحققّتْ جميعُ الفضائل.

كان الأنبياء يعملون بالتّدريج وبما أمكن لسَوق البشر إلى جهة معرفة الله، وجميعُ الأمور الأخرى كانت مقدّمةً لهذا المعنى. «..»

لاحظوا ماذا يقول الأمير في (دعاء كميل). يقول: على فرض أنّي تحمّلتُ النّار فكيف أتحمّلُ فراقَك؟ (**فهَبني.. صبرتُ على عذابك فكيف أصبرُ على فراقك؟**). ماذا كانوا يقولون عليهم السّلام؟

ما هي اللّغة التي تتحدّث بها المناجاة الشّعبانيّة؟ إنّ في الأدعية الواردة عن الأئمّة عليهم السّلام إشاراتٍ كثيرةً إلى مقاصد الأنبياء.

في القرآن الكريم إشاراتٌ غاية في اللّطف، وحيث إنّ القرآن قد جاء للعموم، فقد تمّ التّعبير عنها بحيث يتمكّن من إدراكها الخواصّ والعموم.

القرآنُ الكريم مركزُ كلِّ أنواع العرفان، مبدأُ كلِّ أنواع المعرفة، أي أنّ فهمَه صَعب. الذين فهموه هم (**مَن خُوطب به**)، الذين كانوا متّصلين برسول الله، أولئك يعرفون واقعَ الحال، هم الذين يعرفون حقيقة مقاصد الأنبياء..».

• **وفي المجال الثّاني (ذمّ العرفان):**

* «العرفاء كانوا معتقدين بالإسلام، إلّا أنّهم كانوا يُرجعون جميع المسائل إلى البُعد العرفاني، ولم يكونوا يعتقدون بمسائل العصر. كانوا حتّى إذا واجهَتهم روايةٌ في الجهاد يحملونها على جهاد النّفس، وكانوا ينظرون إلى الإسلام بصورة أخرى غير

مقاربة لسماحة الشّيخ حسين كوراني قدّمت بتاريخ ٢٦ ربيع الأوّل، عام ١٤٢٦ للهجرة، في المستشاريّة الثّقافيّة للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة بدمشق.

تلك الصّورة الواقعيّة الشّموليّة الجامعة لكلّ الأبعاد.. لقد ابتُلينا بهم لفترة، وطبعاً كانوا أشخاصاً صالحين، إلّا أنّهم كانوا ينظرون إلى بُعدٍ واحدٍ من الإسلام». (صحيفه نور: ج ١٠، ص٤٥٩).

والنّتيجة هي التزامُ الإمام البُعدَ الرّوحيّ، مع استعماله مصطلَحَ العرفان بما يوحي بتبنّي دلالته على هذا البُعد الأعظم في الإسلام.

ويحدّد الإمام موضوع علم العرفان بقوله:

«موضوعُ الفلسفة مطلَق الوجود؛ من الحقّ تعالى إلى آخرِ مراتبِ الوجود، وموضوعُ علم العرفان والعرفان العلميّ هو الوجود المطلَق، أو ... الحقّ تعالى، ولا بحثَ له في غير الحقّ وجلوته (وتجلّيه) الذي ليس غيره.

إذا بحث كتابٌ أوعارفٌ عن شيء غير الحقّ فلا الكتابُ عرفان، ولا القائلُ عارف...».

(من رسالته إلى السّيّدة طباطبائي، زوجة ابنه المرحوم السّيّد أحمد).

وحول موقع الإمام بين العرفاء، ومكانته السّامية في علم العرفان، أكتفي بتسجيل ثلاث ملاحظات:

* **الأولى**: قبل انتصار الثورة الإسلاميّة بكثير، اتّفق الفيلسوف الفرنسيّ «**هنري كوربان**» مع الفيلسوف «**السّيّد جلال الدّين الآشتياني**» على اعتبار نصّ الإمام أحدَ محاور دراسةٍ في عدّة مجلّدات تهدف إلى التّعريف بالفكر الفلسفيّ والعرفانيّ (الإيرانيّ) المتميّز، وقد كتب السّيّد آشتياني عام ١٩٦٣م يصفُ الإمام بأنّه «**خاتِم الحكماء الإلهيّين**».

* **الثّانية**: أنّ الإمام يناقشُ آراءَ كبار العرفاء، ويسجّلُ رغم احترامِه الشّديد والمتميّز لهم، مواطنَ اختلافه معهم، من ذلك قوله: «وبهذا البيان ترتفعُ الشّبهة التي وردت في (شرح) الحديث الشّريف: **خلق اللهُ المشيئةَ بنفسِها**، من دون حاجةٍ إلى التّفسير البعيد للمحقّق العظيم الشّأن الميرداماد نضّر اللهُ وجهَه، ولا إلى التّأويل الغريب للمحقّق الجليل الفَيض، أو التّأويل العجيب للمحدّث الخبير المجلسيّ عليهما الرّحمة».

يضيف: «والعجب أنّ الفيلسوف الإسلاميّ الكبير صدر المتألّهين قدّس سرّه، قد صرفَ النّظر هو أيضاً عن تحقيق أصحاب المعرفة وأولي الألباب في هذا الحديث، حيث أَوَّلَه على نحوٍ مختَلف».

(جنود العقل والجهل: ص ٢٣، ط: الأعلمي).

* **الثّالثة**: أنّ الإمام بالرّغم من احترامِه لكبار الفلاسفة والعرفاء، فهو يعبِّر عنهم بأنّهم كانوا «**راجلين**».

يقول في ذلك:

«إذا جال شخصٌ في مشارب الفلسفة قبل الإسلام وبعدَه، وخصوصاً في القرون الأخيرة، وقارن بين عرفاء ما قبل الإسلام (الذين كانوا في الهند وغيرها ممّن تعاطوا مثل هذه المسائل) وعرفاء ما بعد الإسلام، الذين دخلوا هذا المجال بتعليم الإسلام، يدرك أيّ تحوّلٍ تحقّق في هذا البُعد، في حين أنّ عرفاء الإسلام الكبار أيضاً كانوا راجلين في كشف حقائق القرآن».

(صحيفه نور: ج ١٧، ص ٤٣٠، حسينيّة جماران، بمناسبة ذكرى المبعث الشّريف).

يريدُ الإمام أنّ عَظَمَة حقائق القرآن فوق أن تطالَها كلَّها العقول، وفي بقيّة النّصّ وغيره تصريحٌ بذلك، إلّا أنّ محل الشّاهد هو وصفُ عرفاء الإسلام بأنّهم كانوا راجلين.

هذا الوصف عندما يصدر من مثله، فهو يعني -على الأقلّ- أنّه في موقعٍ يؤهِّلُه لتَقييم مثل هؤلاء الكبار، ويعني على الأكثر أنّه يفوقُهم جميعاً.

***

الإمام الخمينيّ مجاهداً

رُبَّ مجاهدٍ يُعار الجهادَ كما يُعار شخصٌ الإيمان، فلا يكون الجهادُ مستقرَّه وموطنَه.

ورُبَّ شخصٍ يبدو قدوةً في الجهاد، تحقَّق النّصرُ على يدَيه وأُقيمت الدّولة، وليس له من الجهاد في الحقيقة إلّا الادّعاء.

لا يصحّ -إذاً- أن يكون المقياسُ في جهاد الإمام وغيره، محض إقامة الدّولة، بل يجب أن يكون المقياس سيرتُه في مواجهة الأحداث المصيريّة، والمنعطفات الحادّة، والتزامُه الرّؤية التي انطلقَ منها، وسيرته الشّخصيّة في تجنّب التَّرَف ورَغَد العيش، وسيرتُه في التّواضع، والمنصب، ورعاية حقوق النّاس، خصوصاً الفقراء والمجاهدين، ورعاية حقّ الله تعالى في فرائضِه والنّوافل.

عندما يكون المقياس ذلك ويُراد تطبيقُه على مَن وصَلَ به المسار الجهاديّ إلى السّلطة والحُكم، تكون المهمّة دقيقةً جدّاً، لأنّ السّائد أن تكون المقاييس في خدمة السّلطان.

مع الإمام الخمينيّ، يختلف الأمر، فهو بحقّ أكبر من أن يُتحدّث عنه بمثل هذه المقاييس، لأنّه بقَطع النّظر عن مساره الحافل في ميدان الجهاد الأكبر، **فقيهٌ عارف**.

لم تُبلور الأحداثُ شخصيّتَه، بل بلوَر هو بشخصيّته -بما آتاه الله تعالى لعرفانِه- قوافلَ الشّهداء ومواكبَ المجاهدين وفيهم من كبار العلماء، ومنهم مَن قال: «**ذوبوا في الخمينيّ بقدر ما ذابَ**

هو في الإسلام»، وطَبعتْ شخصيّتُه بطابعها الجهاديّ العصرَ كلَّه، وأجيالاً قادمةً يرعُف بها الزّمان.

بين العرفان والجهاد

يؤكّد ما تقدّم أنّ الحديث عن الفقيه العارف المجاهد، يختلفُ جذرياً عن المجاهد، وعندما يدقّ الحديث ويصعبُ عن عرفاء مثل شهداء المقاومة الإسلاميّة في لبنان، كما وصفَهم الإمام، فكيف يتأتّى الحديثُ عن الإمام نفسه، ولا علاقة لهذا التّفريط بلَوثة تاريخ البلاط وكُتّابه، فهو بمسؤوليّةٍ بين يدَي خير الشّاهدين.

يكشفُ التّأمّل في شخصيّة العارف أبعاداً قد يصحّ القول فيها إنّها تتماهى فيها أمواج الأسفار الأربعة، أو إنّها ثمرةُ التّوحيد الحقيقيّ، أو الولاية الحقّ، وغير ذلك كثير.

الجهاد قرارُ عقل، تلقّاه القلب بالإعجاب، بل بالحبّ إلى حدّ إسلامِ الرّوح له، فالموقفُ الجهاديّ –إذاً– ثمرة عقلٍ سليم وقلبٍ سليم. عقلٍ متوقّد، وقلبٍ شفَّ حتّى غدا مرآةَ العقل وتجلِّي سلطانُه على المشاعر والأحاسيس.

في العارف يسمو الجهاد ليَغدو معرفةً في المُجْتَلَد، سَفَراً في الخلق بالحقّ، عبادةً وعبوديّة، وفيضَ حبٍّ غامر، أين منه حبّ الأم لوحيدها.

تذهبُ نفسُ العارفِ حسراتٍ على النّاس لما يحلُّ بهم من فوادح، ويحلّ بهم من قوارع، أعظمها هولاً وأشدّها خطراً الظّلم الذي يصادرُ الكرامات والوجود، ويُثقل كاهلَهم بالإصر والأغلال، واستباحة الظّلام وطواغيته للمحرّمات وتجاوزهم الحُرُمات، وعدوانهم الصّارخ على الحرّيّات حتّى لقمة القوت وشربة الماء وتنفّس الهواء.

يتحدّث الإمام عن حبّ الأنبياء للنّاس، فيقول:

«تتلخّص جميع الأمور التي كان الأنبياء يتحرّقون بسببها في أنّهم كانوا يرون النّاس يجرّون أنفسَهم نحو جهنّم.

الأنبياءُ مظهرُ رحمة الحقّ تعالى، يريدون الخيرَ لكلّ النّاس، يريدون لكلّ النّاس أن يعرفوا الله، يريدون السّعادة لجميع النّاس، وعندما يرون أنّهم يسيرون إلى جهنم، فإنّهم يتأسّفون. في القرآن الكريم إشارةٌ إلى ذلك: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الكهف:٦».

(صحيفه نور: ج ١٩، ص ٤٣٧ – ٤٣٨).

وطبيعيٌّ أن يقتدي العارفُ بالأنبياء، لا سيّما سيّدهم المُصطفى الحبيب صَلّى الله عليه وآله وعليهم أجمعين، فيؤرِّقُه ما يتعرّضُ له النّاسُ من مآسٍ على أيدي الطّواغيت، وتعكفُ همّتُه على مُنازلة مراكز الظّلم والاستعباد، حاملاً لواء الحريّة والكرامة والمساواة، باذلاً مهجتَه في الخُطى البدريّة الكربلائيّة للدّفاع عن عباد الله تعالى الذين قال عنهم سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الزمر:٥٣. ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يس:٣٠.

لم يَقوَ الإسرافُ في المعصية، على حَجبِ حبِّ الله لعبادِه، ولم يَقْوَ هُزْءُ النّاس بالرُّسُل على مَنع تكرار المحاولة، لأنّ حبّ الله تعالى للنّاس لا يقفُ عند هذه الحدود، وصولاً إلى إرسال أفضل الخَلق على الإطلاق لأداء هذه المهمّة إلى أُناسٍ منهم أبو جهل، وأبو لهب، وأبو سفيان.

والعارفُ الذي سُمِّيَ بذلك لمعرفتِه بالله تعالى لا يُمكن إلّا أن يكونَ مظهرَ حبِّ الله تعالى وحبِّ سادة أوليائه للنّاس.

قلبُ العارف القلبُ السّليم الذي ليس فيه غيرُ حبِّ الله وحبِّ مَن وما يحبُّ عزّ وجلّ.

يترتّب على حبِّ العارف وعرفانه، أمران:

الأوّل: العارفُ هو أعرفُ النّاس بالحقيقة المحمّديّة، فهو قد بلغَ الغايةَ التي بلغ من خلال معرفتِه بالحقيقة المحمّديّة. «**مَن أرادَ الله بدأ بِكُم**».

الثّاني: أنّ العارف قائدٌ جهاديٌّ استشهاديّ، لأنَّ رفضَه ظُلمات الطّواغيت ومنكرَهم، واستعدادَه لخوض اللُّجَج في مواجهتهم مستمَدٌّ من براءة الله تعالى وبراءة أوليائه منهم، ولَعْنِهم، وحلول غضب الله تعالى عليهم.

يقفُ العارف في الجبهة المقابلة للطّاغوت، فلا ركونَ ولا موادّةَ ولا مداهنة، وإنّما هي المواجهةُ المستمرّة أبداً ﴿..حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ..﴾ البقرة:١٩٣.

ويتجاوزُ جهادُ العارف حدودَ التّكليف «الرّسميّ» ليُصبحَ تجسيداً لحبِّ التّكليف والحنينِ إلى توفيقِ أدائه، ويشبُّ في شغاف قلبِه ضَرَمُ لقاءِ الله مخضّباً بدَمِ الشّهادة، ويتعملقُ الإصرار، إلى حيث يُمكن أن يصبحَ خزينُ قلبِ العارف، الخزينَ الإلهيّ الذي تسيلُ منه أوديةٌ بقدَرِها.

أليس هذا ما عاشته الأمّةُ مع الإمام الخمينيّ وما تزال؟

الصّحيفة السّجّادية

بُراقُ عروجِ السّالكين

الدّكتور حسين الحاج حسن

(الصّحيفة السّجّاديّة) واحدةٌ من مكارم «معادن الرّسالة»، أنشأها الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليهما السلام لتكون بَلْسَماً لجروح النّفس التي أدماها التّثاقُل إلى الأرض، فتأخذ بها إلى مدارج الكمال الإنساني.

هذه المقالة مقتبسَة -بتصرّف- من كتاب (الإمام السّجّاد عليه السلام: جهادٌ وأمجاد) للدّكتور حسين الحاج حسن.

(الصّحيفة السّجّاديّة) من ذخائر التّراث الإسلامي، ومن مناجم المباحث البلاغيّة، والأخلاقيّة، والتّربويّة، والأدبيّة في الإسلام، ونظراً لأهمّيّتها فقد سمّاها كبار رجال الفكر والعلم بـ «إنجيل أهل البيت».

وممّا زاد في أهمّيّة (الصّحيفة السّجّاديّة) أنّها جاءت في عصرٍ طغت فيه الأحداث الرّهيبة في السّياسة، والّتي أحالت حياة المسلمين إلى جحيمٍ مُظلمٍ ليس فيه أيّ بصيص نور من هَدْي الإسلام وإشراقه، كالتّكتّل الحزبيّ والسّياسيّ الذي سعى وراءَه أصحابُ المصالح والأطماع الشّخصية، حيث اختفى أيّ ظلّ لروحانيّة الإسلام، وتعاليمه السّمحة، وآدابه الإنسانية، وحِكَمه الخالدة.

لقد فتحت (الصّحيفة السّجّاديّة) آفاقاً جديدة للوعي الدّيني، الذي كان قد فقدَه المسلمون، ودعت إلى التّبتّل الرّوحي، والصّفاء النّفسي، والطّهارة، والتّجرّد من الأنانية، ونبذ الجشع والطّمع، وغير ذلك من الرّذائل والنّزعات الشّريرة التي نهى عنها الإسلام، كما دعت إلى الاتّصال بالله تعالى خالق الكون، وواهب الحياة، ومصدر الخير والحقّ والجمال.

فرادتُها

تمتاز (الصّحيفة السّجّاديّة) بأمور بالغة الأهمّيّة ومميّزات عديدة، من بينها ما يلي:

١- أنّها تُمثّل الانقطاع الكامل إلى الله تعالى، والاعتصام بحبله سبحانه، والتجرّد التّامّ من عالم المادّة.

٢- أنّها كشفت عن معرفة ربّانيّة حَبا الله تعالى بها الإمام السّجّاد عليه السلام، فهي تُنبئ عن حقيقة إيمانه النّبويّ بالله الواحد القهّار، حيث لم يكن ذلك ناشئاً عن عاطفة أو تقليد، وإنّما هي معرفةٌ قائمةٌ على العلم اليقين والعرفان الأكيد. وقد ضمّن الإمام عليه السلام أدعيتَه الكثيرَ من البحوث الكلامية التي نهَلَ منها علماءُ الكلام، والفلاسفةُ المسلمون في ما كتبوه عن معرفة الله تعالى، وعن الوجود.

٣- انطوت أدعيةُ الصّحيفة على كمال الخضوع أمام الله تعالى، بما حَوَته من أفانين التّضرّعات، وإظهار التذلّل للباري عزّ وجلّ.

٤- فتحت (الصّحيفة السّجّاديّة) أبواب الأمل والرّجاء برحمة الله تعالى الّتي وَسِعَتْ كلّ شيء. فالإنسان مهما كثُرت ذنوبه وعظُمت خطاياه، لا ينبغي له أن يقنط من رحمة الله تعالى وعفوه وكرمه. يقول الإمام عليه السلام: «**إلهي، وعزّتِك وجلالِك، لَئِنْ طالَبتَني بذُنوبي لَأُطالِبَنّك بعفوك، وَلَئِن طَالَبتَني بِلُؤمي لَأُطالبَنّك بكرمك...**».

٥- ما ورَدَ من أدعية (الصّحيفة السّجّاديّة) يصلحُ برامجَ للأخلاق الرّوحيّة، وآداب السّلوك، والفضائل النّفسيّة التي يسمو بها الإنسان عن عالَم المادة.

٦- احتوت الصّحيفة على حقائق علميّة لم تكن معروفةً في ذلك العصر، كقولِ الإمام عليه السلام في دعائه على الأعداء: «**أللّهمّ وامزجْ مياهَهم بالوباءِ وأطعِمْهم بالأدواء...**». لقد أشار الإمام السّجّاد عليه السلام هنا إلى حقيقة علميّة اكتُشفت في العصور الأخيرة، وهي أنّ جراثيم الوباء المعروفة بـ (الكوليرا) إنّما تأتي عن طريق الماء، فهو الذي يتلوّث بجراثيمها، كما أنّ جراثيمَ هذا الوباء تنتقل

إلى الأطعمة، فإذا أكلَها الإنسان وهي ملوّثة بتلك الجراثيم فإنّه يُصاب بهذا الدّاء.

٧- تُبيّن (الصّحيفة السّجّاديّة) فلسفة الدعاء الّذي هو معراجُ المؤمن إلى الله تعالى، والبالغُ به إلى أرقى مراتب الكمال، إذ ليس شيءٌ في هذه الحياة ما هو أسمى من الاتّصال بالله تعالى، واهبِ الحياة إلى النفوس الحائرة التي تشعر بالطمأنينة بعد القلق، وبالأمل بعد القنوط.

٨- لقد بلغت (الصّحيفة السّجّاديّة) أرقى مراتب الفصاحة والبلاغة في اللّغة العربية. فلا نجد كلاماً عربيّاً بعد القرآن الكريم والحديث النّبويّ و(نهج البلاغة) أبلغ وأفصح من أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام.

قال الدّكتور حسين محفوظ: «الدّعاء المأثور عن الأئمّة عليهم السلام نثرٌ فنّيّ رائع، وأسلوبٌ ناصعٌ من أجناس المَنثور، ونَمَطٌ بديعٌ من أفانين التّعبير، وطُرقٌ بارعةٌ من أنواع البيان، ومسلكٌ معجَبٌ من فنون الكلام «..» فالدّعاءُ أدبٌ جميل، وحديثٌ مبارك، ولغةٌ غنيّة، ودينٌ قيّم، وبلاغةٌ عبقريّة، إلهيّةُ المَسحة، نبويّةُ العَبقة..».

٩- تُعتبَر (الصّحيفة السّجّادية) ثورةً على التّرَف والفساد والانحلال الخُلُقي الذي سادَ في ذلك العصر بفعل السّياسة الأمويّة، فقد مارس الحكّامُ أنفُسُهم شتّى أنواع التّهتّك والابتذال، وبذّروا أموال المسلمين على مجونهم، وأغدقوا العطاء للمُغنّين، والراقصين، وشعراء السّوء، وذلك في وقتٍ أخذَ الفقرُ والبؤسُ فيه يشدّ على خناق المواطنين، ولم يعد للاقتصاد الإسلاميّ أيّ وجود في واقع الحياة العامّة، وقد ذكر المؤرّخون الكثير من الأخبار التي تعكس هذا الواقع المرير. منها أنّ الغناء شاع في المدينة المنوّرة حتّى أصبحت مركزاً له، ومقصداً للمغنّين والمغنّيات من شتّى البلدان، وأنّ الوليد بن يزيد أعطى «معبداً» المغنّيَ اثنَي عشر ألف ديناراً. واستقدم جميع مغنّي ومغنّيات الحجاز، وأغدق عليهم الجوائز الكثيرة. قال أبو الفرج الأصفهاني: «إنّ الغناء في المدينة لا يُنكره عالمُهم، ولا يدفعه عابدُهم».

ومن مظاهر التّرف ما ذكرَه ابنُ سعدٍ في (طبقاته) والأصفهانيّ في (الأغاني) وغيرُهما من أنّ عمر بن عبد العزيز كان يلبس الثّوب بأربعماية دينار، ويقول: «ما أخشنَه». وكان فتيانُ أميّة «يرفلون بالقُوهيّ [صنف من الثّياب فاخرة] كأنّهم الدّنانير الهِرَقْليّة». و«كان مروانُ بن أبان بن عثمان يلبسُ سبعةَ قمصانٍ كأنّهَا درج، بعضُها أقصرُ من بعض، وفوقَها رداء عدنيّ بألفَي درهم..».

أمام هذه التيّارات المترَفَة والفاسدة والمدمّرة للأخلاق والقيم الإنسانية، كان موقف الإمام زين العابدين عليه السلام متسماً بالقوة والصّلابة والجرأة، فقد سلّط عليها أشعّةً من روحه المقدّسة التي تفيض بها (الصّحيفة السّجّاديّة)، وذلك بما حَوَته من وعظٍ وإرشاد، وما اشتملت عليه من قِيَم الإسلام وهُدى أهل البيت عليهم السلام.

أدعيةُ الإمام زين العابدين عليه السلام فَتحتْ آفاقاً جديدةً للوعي الدّيني، كان قد فَقَدَه المسلمون، وَدَعَتْ إلى التّبتّل الرّوحي، والصّفاء النّفسي، والطّهارة، والتّجرّد من الرّذائل والنّزعات الشّريرة.

لقد وقفت (الصّحيفة السّجّاديّة) سدّاً منيعاً لحماية الإسلام وصيانتِه من ذلك التّفسّخ الجاهلي الذي أوجدَه الحكم الأمويّ، فقد نَعَتْ على الأمّة ما هي فيه من الانحطاط الفكريّ والاجتماعيّ، ودعتها إلى الانطلاق والتحرّر من ذلّ المعصية إلى عزّ الطّاعة، طاعةِ الله العليّ القدير.

(الصّحيفة السّجّاديّة) محطّ الاهتمام

لم يقتصر الاهتمام بـ(الصّحيفة السّجّاديّة) على العالم العربيّ فقط، وإنّما تعدّاه إلى غيره من شعوب العالم، فقد تُرجمت الصّحيفة إلى أكثر اللّغات الأجنبيّة؛ كالفرنسيّة، والإنكليزيّة، والفارسيّة، والألمانيّة، وغيرها.

ومن مظاهر الاهتمام أيضاً أنّ الخطّاطين في مختلَف العصور الإسلاميّة انبروا إلى كتابتِها بخطوطٍ في منتَهى الرّوعة، وقد حفَلتْ بها الكثير من خزائن المخطوطات الإسلاميّة. كما عكف العلماءُ على دراسة مضامين الصّحيفة، وإيضاح مقاصدِها، وشَرْحِها، وقد زادَ عددُ العلماء الذين قاموا بهذه المهمّة على السّبعين، كلّ ذلك لأنّهم وجدوا في (الصّحيفة السّجّاديّة) نموذجاً فريداً يستفيدُ منه كلُّ أديبٍ وباحث، ورأوا فيها جمالَ الأسلوب، وروعةَ الدّيباجة، ورِقّة الألفاظ، ولمسوا من الاتّصال بها ارتياحاً روحيّاً يُبلسِمُ النفوسَ الحائرة، والقلوبَ الضّالّة.